الأخلاق التجارية

اسطنبول - ٢٢ تموز/يوليو ١٩٨٠

بينما كنا في زيارة للسوق المغطى في اسطنبول (كابا كارسي) نتفرج على معروضات نوافذ المحلات التجارية، توقفنا لحظةً عند محل للتحف لا يوجد صاحبه فيه. وعرض علينا البائع الموجود في المحل المجاور أن يبيعنا أي شيء نريده من معروضات محل جاره. ولم يحاول أن يجذبنا إلى دخول محله الذي يبيع فيه التحف أيضاً، وأن يحاول بيع بضاعته الخاصة.

وفي مكان آخر، دفعنا القيمة النقدية كاملة مقدماً لتفصيل معطف جلدي وخياطته ثم إرساله بالشحن إلى عناوننا في ألمانيا. وسوف نستلم المعطف علماً بأننا لم نَرَ التاجر بتاتاً من قبل، بل ومن المحتمل أيضاً ألا نقابله ألبتة في المستقبل أيضاً.

وبعد فترة، طلبت زوجتي من بائع مجوهرات تقييم سعر "ماسَةٍ" فاخرة نقية. وقد اختفى صاحب المحل لمدة نصف ساعة حيث ذهب ليستشير صاحباً له أكثر خبرةً منه في الألماس. ولم نقلق لأننا كنا متيقنين أننا سنستردُّ الماسة ذاتها، وليس غيرها.

كيف يمكن تفسير هذه الأخلاق التجارية، حيث يتعامل التجار بالحب والسلام بدلاً من قطع رقاب بعضهم بالمنافسة الشديدة؟ ترى هل كان هذا بسبب الشفافية الموجودة في هذا السوق، أم أنها بسبب مقاييس الأخلاق العالية للنظام السابق للشعور بالذنب؟ أم أنها نتيجة لما يتبعونه من الأسلوب القدري في الاقتصاد التجاري؟ أم أنها ثمرة الشعور بالإخاء في المعاملة والتطبيق؟

إن هذه الأخلاق الإسلامية هي حقيقية، بل ومن الصعب شرح النظام الاقتصادي للإسلام على أنه بديلٌ يمكن تدريسه بشكل ثابت. ليس هناك نُدْرَةٌ في الأدب عن هذا الموضوع بالذات (وخاصة عن البنوك غير الربوية)، إلا أنه لا يوجد مثالٌ إسلامي عاملٌ حيٌّ واحدٌ عن الاقتصاد الإسلامي. ولعل أحد الأسباب الرئيسة لهذا الغياب هو فقدان نظام تجاري إسلامي شامل واضح المعالم تماماً. وكما هو الحال بالنسبة للقانون الأساسي لجمهورية ألمانيا الاتحادية، ودستور الولايات المتحدة الأمريكية، فإن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يوفّران الإطار العام لاقتصاد السوق بناء على الملكية الفردية والمسؤولية الاجتماعية. وأما القوانين الأكثر تخصصاً فهي محدودة بشكل رئيسٍ لكل من العقود والضرائب، وهي مصنفةٌ على أنها تحريم للربا الفعلي، والفائدة، والصفقات التجارية التي تشتمل على عامل من عوامل المقامرة (مثل النظر في البضائع التي هي بضائع المستقبل).

ولهذا، فيجب أن نجد روح السلوك الإسلامي التجاري في الأوامر القرآنية المتعلقة بالأخلاق. وهي لا تختلف في مبادئها عن الاقتصاد النصراني. بل يمكن أن يحدث الإسلام إصلاحاً في العادات التجارية فحسبُ، إذا كان هناك إصلاحٌ على الإطلاق، من خلال إصلاح الفرد البشري. والمهم هنا هو ليس النظام، إنما المهم هو العقلية الاقتصادية والأخلاق التي يتحلى بها المنتجون والمستهلكون المسلمون، والمقاولون، والبنوك، الذين يعتبرون جميعاً مسؤولين اجتماعياً عن هذا الإصلاح.

ثلاث مرات، وليس أربع

اسطنبول ـ ٢٩ تموز/يوليو ١٩٨٠

كان الجو حاراً جداً في اسطنبول أثناء مكافحتنا للحرِّ الشديد فيها خلال ازدحام المرور وحركة السير، وقد ركبنا الباصات، وسيارات الأجرة، ومشينا على أقدامنا التي تؤلمنا لنزور بعض الأصدقاء الذين لم نستطع الاتصال بهم هاتفياً.

وقرعت زكية، وهي والدة زوجتي، جرس الباب المرة الأولى، ثم الثانية، وبعد برهة انتظار، قرعت الجرس للمرة الثالثة. ولم تَحِرْ جواباً. ودون أي تأخير أو تردد، استدارتْ، وقد حالتْ دون السماح لي بقرع الجرس للمرة الرابعة متعلّلةً بقولها: "إننا لا نفعل هذا". وقد وصلتْ إلى هذه النتيجة، وهي تكاد لا تعرف أنها تَتَّبِعُ قاعدةً أرساها النبيُّ ﷺ، وكان تصرُّفُها هذا مطابقاً للعادات المتبعة في العالم الإسلامي. إلا أن ردَّ فعلها هذا يمكن اقتفاء أثره إلى حادثة سجلها لنا التاريخ من خلال الكتاب الرابع والسبعين في كتاب الحديث الشهير: "صحيح البخاري" على أنها "آداب الاستئذان".

وحسب ما ورد في الحديث رقم ٢٦١، الذي رواه أنس بن مالك رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ، "كان إذا سلَّم سلَّم ثلاثاً، وإذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً" وأنه ﷺ قال: "إذا استأذن أحدكم ثلاثاً فلم يؤذن له فليرجعْ". فإذا لم يُفْتَح الباب فيفترض، وهو محِقٌّ، أن أصحاب الدار إما أنهم غير موجودين، أو أنهم لا يرغبون استقبال الزائر في هذا الوقت.

وهذا ليس إلا مثالاً واحداً من الأمثلة الكثيرة التي تدل على أن سلوك النبي ﷺ أصبح طريقة الحياة الطبيعية للشعب المسلم بأكمله. وكلما تعمقت في دراسة صحيح البخاري وصحيح مسلم خاصة من أحاديث رسول الله ﷺ، ازدادتْ عيناي تفتحاً على ملاحظة المزيد من علم الاجتماع. والذي لا أرغب فيه ولا أحترمه هو أن اعتبار الإسلام ثقافة.

الطريق إلى مكة

بون ـ ١٨ آب/أغسطس ١٩٨٠

اقتربنا من نهاية القرن العشرين، وباستطاعتنا أن نؤكد أنه لم يستطع شخصٌ ما خلال المئة سنة الماضية أن يساهم في شرح الإسلام والدعوة إليه في الغرب أكثر مما فعله النمساوي محمد أسد (والذي عُرِف سابقاً باسم: ليوبولد ويس، الذي انحدر من أصل يهودي). ولم يكن أثره هذا فقط بسبب الاحترام الذي قدَّمه الناس لحكمته البليغة ولسعة معرفته واطلاعه الواسع، بل لمؤهلاته الأخلاقية كذلك.

ولد محمد أسد عام ١٩٠٠، وعاش حياة حافلة بالمغامرات التي وفَّرتْ له الكثير من الفرص التي كشف فيها عن مواهبه الكثيرة التي استخدمها. فعندما كان في الرابعة عشرة من عمره هرب من بيت والديه ليلتحق بالجيش النمساوي الذي شارك في الحرب العالمية الأولى. وعندما بلغ التاسعة عشرة من عمره، عمل كمساعد للدكتور مورناو، ثم بعدها مساعداً لماكس رينهارديت، وكان كلاهما عملاقاً معروفاً في صناعة الأفلام السينمائية.

وعندما بلغ محمد أسد الثانية والعشرين من عمره، أصبح مراسل الشرق الأدنى لإحدى أكبر الصحف الألمانية المرموقة "فرانكفورتر زيتونغ". وبالتالي، فقد اعتنق الإسلام عام ١٩٢٦ وأصبح صديقاً لكل من الملك [عبد العزيز] ابن سعود، والشاعر العلامة محمد إقبال.

ولقد انتهت الحرب العالمية الثانية حيث كان محمد أسد في الهند. وعندما تأسست باكستان أصبح محمد أسد معاون وزير لشؤون الشرق

الأدنى في وزارة الخارجية لتلك الدولة الفتية، حيث تمَّ إرساله لاحقاً إلى نيويورك كممثل دائم إلى الأمم المتحدة.

وليست هذه الأمور سوى بعض أهم الأدوار التي قام بها محمد أسد خلال فترة حياته التي تُعْتَبَرُ بمجملها حياة زاخرة ومتكاملة تكامل فيها الفكر مع العمل، والفلسفة مع الدِّين، وعلم الجمال مع السياسة بطريقة إسلامية بارعة رائعة. ويعتبر محمد أسد بحقٍّ أحد رجال النهضة الإسلامية المعاصرة.

وقد أصبحت كتب محمد أسد جميعها، وبلا استثناء، من الكتب التقليدية الهامة، كل في مجاله. ففي كتاب "الإسلام على مفترق الطرق"، الذي أصدره محمد أسد عام ١٩٣٤ ساهم محمد أسد في استرداد العزة والكرامة والاعتزاز بالذات للعالم الإسلامي الذي قدَّم الاعتذار تلو الاعتذار بسبب فقده للثقة بنفسه تحت الهجوم الضاري للتفوق التقني الغربي. وقد كتب محمد أسد ما يلي في الهند قبل أكثر من خمسين سنة بِبُعْد نظرٍ مدهش: "من المحتمل... أن الاضطراب الاجتماعي والاقتصادي المتنامين، وكذلك سلسلةٌ جديدة من الحروب العالمية التي لا تُعْرَفُ أبعادها حتى ذلك الحين، وكذلك الإرهاب العلمي، ستؤدي جميعها إلى خداع الذات المادي للحضارة الغربية بطريقة شنيعة ومخيفة سخيفة ومنافية للعقل، تدعو أهل تلك الحضارة أن يبدؤوا من جديد بتواضع وصدقٍ في الطلب، البحثَ عن الحقائق الروحية، ويتوافق هذا عندئذٍ مع الدعوة الموفقة الناجحة إلى الإسلام التي يمكن أن تصبح أمراً ممكنا وواقعاً ملموساً..."

وأما سيرته الذاتية التي كتبها بشكل مبدعٍ رائع: "الطريق إلى مكة"، عام ١٩٥٤، وجاءت على شكل وثيقة تحرِّك المشاعر وتهزُّها لتروي قصة اعتناقه للإسلام. وأما كتابه: "مبادئ الدولة والحكومة"، فيعترف

محمد أسد دون أي تردد ، أنه لم تكن هناك دولة إسلامية حقيقية فعلية بعد الخلافة الراشدة لكل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي الله عنهم جميعاً ، الخلفاء الراشدون الأربعة الذين أداروا دفة الحكم من المدينة المنورة. كما أكد محمد أسد أيضاً أن القرآن الكريم والسنة المطهرة يشتملان على مبادئ وأطر عامة دقيقة جداً عن تنظيم الدولة الإسلامية والمجتمع. وكانت استنتاجاته بعيدة الأثر، وجاءت على النحو التالي:

إن مجمل القانون الإسلامي الذي تطور على مدى ثمانية قرون من الزمن هو أوسع بكثير من الأمور الأساسية المُلْزمة (الشريعة).

يمكن أن ترى الدولة الإسلامية كثيراً من المزايا النموذجية للديمقراطية البرلمانية وسيادة القانون من خلال إطار الدستور (والتشريعات) التي تعكس المبادئ الأساسية، بما في ذلك المعاهد الأمريكية للرئيس والمحكمة العليا.

إن الصحوة الإسلامية ليست بالضرورة إعادة تأسيس حكومة إسلامية دينية.

وقد أدى محمد أسد واجبه في المدينة المنورة، حيث استطاع خلال عدة عقودٍ من الزمن ترجمة الجزء الأول من (صحيح البخاري: السنوات الأولى للإسلام، ١٩٣٨) كما شرحه وفسره، وكذلك فقد ترجم معاني القرآن الكريم بأكمله (رسالة القرآن الكريم، ١٩٨٠). وقد كانت ترجمته ضرباً من العمل الأدبي الراقي، والعلمي وحادثة تاريخية بحدِّ ذاتها ، حيث استخدم لغة عصر شيكسبير للغة الإنجليزية. ولا شك أن محمد أسد مدين للمصلح الديني المصري المعروف الشيخ محمد عبده (مؤلف رسالة التوحيد المشهورة، ١٨٩٧). ولقد سلك محمد أسد منهج الشيخ محمد عبده دائماً في بحثه عن أكثر التفاسير "مُطابَقَةً" للمعقول والمنقول، والتي تعبر عن الفهم المباشر، كما طبَّق عليها أحدث الإضاءات اللغوية ومفاهيم العلوم

الطبيعية، ولم يظهر محمد أسد أي احترام كاذب لكل من الممارسات التقية والشخصيات الهامة التي ...

وقد اختار هذا الرجل العظيم، استماتة في الدفاع عن شخصيته وروحانيته، اختار أن ينتقل مرة أخرى، وقد تجاوز الثمانين من عمره، من المدينة المنورة إلى طنجة، ومن هناك إلى البرتغال وإسبانيا، مثبتاً للجميع أن محمد أسد سيبقى صادقاً مع نفسه: ناقداً، يقظاً، حيَّاً.

تحرُّرُ المسلم...

بون. ٢٥ آب/أغسطس ١٩٨٠

إن فكرة "التضحية"، أو تقديم القرابين برجلٍ، أو امرأة، أو حيوانٍ، وأن المُضحِّي يمكن أن يشتري "المغفرة" و"العتق" هي فكرةٌ قديمةٌ (ووثنيةٌ) كأقدم ما يكون. كما أنها اعتقادٌ سبق، بالتأكيد، الاعتراف بالله "الكريم الرحيم". وعندما حاول المتشددون في عقيدة النصرانية تعليل صَلْب السيد المسيح عليه السلام، على أنه "موتٌ قربانيٌ ضروريٌ" للفداء والتضحية، فقد استمروا في جدلهم ضمن هذا المبدأ الوثني للتضحية والقرابين. وكانت حجتهم: "حتى يتمكّن الربُّ من المغفرة (!)، فإنه يحتاج (!) التضحية بالذات؟ تُرى، إذا سمحتم لي بالسؤال، من أجبر الله بتعريف مثل هذه الاحتياجات، وبتحديد مثل هذه الشروط؟ أليس مجرد هذا التفكير كُفْرٌ بواحٌ صريحٌ؟

إن الفكرة والصورة التي يقدمها القرآن الكريم عن الله ربِّ العالمين، حتى من خلال السور التي قد تقُّها "النصرانية" كسورة الفاتحة، وآية الكرسي، وفيهما أقلَّ ما يكون مما يمكن أن يدعيه الإنسان، وأكثر ما يمكن أن يصف به النصارى العاديون مفهومهم وفكرتهم عن الله تعالى. ولعل أهم ما في القرآن الكريم أنه لا يقبل أي شفاعة في العلاقة بين الفرد وربِّه ﷻ، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾. ولا يمكن لخليفة، أو إمام، أو عابد صالح أن يشفع لشخص آخر (بما يمكن أن يكون بمفهوم "الوسيط" في مبادئ النصرانية).

وبمعنى آخر، فمنذ بداية القرن السابع الميلادي، تحرر المسلمون من الوصاية التي تتضمنها إدارة "السر المقدس" أو "القربان المقدس"، ونقلوا إلى العلاقة الكاملة، المباشرة والموجودة بينهم وبين الله؛ علاقة تتناسب مع إنسان العصر الحديث، الإنسان البالغ العاقل الراشد الكامل.